رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

عبقرية بطل الإسلام

رجل الحرب من المهد إلى اللحد

• خالد بن الوليد •

obeikandl.com

obeikandl.com

قبيل فتح مكة بقليل.. ومدينة رسول الله ﷺ يترسخ بنيانها بالإسلام، وتستقر أحوالها الجديدة على نهج الدين الجديد.. كان رسول الله ﷺ بين أصحابه ذات يوم قبل أن ينتصف النهار، فإذا بالغبار المتصاعد من رمال الصحراء الناعمة، ينبئ عن سباق فرسين، يبدو من سرعة اندفاعهما أن على ظهريهما فارسين من فرسان العرب، ومعهما ثالث وهو عثمان بن طلحة.. ولم يمض غير وقت وجيز، حتى قال رسول الله ﷺ بصوته الوادع العذب الذى ينفذ إلى القلوب: "لقد رمتكم مكة بفلذات أكبادها".. وهو يستشرف عن بعد ملامح الرجلين: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، قادمين من مكة لمبايعته.. كانا قد التقيا مصادفة بين وديان الجبال والهضاب الممتدة بصحرائها القاحلة بين مكة ويثرب، ودار بينهما حديث مقتضب فى أول الأمر، حتى يتبين مقصد كل منهما، وكشفت النوايا مبكرا عن وحدة الغاية والقصد.. إلى محمد.. ولما التأخير والتردد حتى الآن، وكل منهما قد استبان الحق فى نفسه وقلبه.. وكل منهما قد استيقن بمنطق العقل أن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا على حق.. وكل منهما ـ خالد وعمرو ـ كان له شأن عظيم فيما بعد، ومع مواكب الفاتحين، حتى انتشرت رايات الإسلام على ربوع العالم، تعلن ميلاد تاريخا جديدا على وجه الأرض..

ولم يقترب مغيب ذلك اليوم، حتى اجتمعت قريش لأمر عظيم، حين أقبل النذير فملأ قلوب قريش ذعرا، حين أنبأهم بأن ابن الوليد، وابن العاص، قد بايعا محمدا على الإسلام.. وربما لم تعرف مكة فى

تاريخها الطويل القديم يوما كذلك اليوم، حين هاجر اثنان من أقوى وأمهر فرسانها، ومن أشرفهم نسبا، وأوفاهم ذكاء وطموحا، وأبرزهم صلابة وشجاعة، وأوسعهم حيلة وقدرة، لا يرهبهم ملء الأرض سيوفا.. وكان التاريخ فى ذلك الوقت لا يحفل إلا بالسادة، ولا يلتفت إلا إلى القادة، ولذلك جاء الخبر اليقين بإسلام خالد وعمر، ليشعل هواجس قريش، وهى لا تجد إلى الطمأنينة ولا إلى الرضا سبيلا !!

" لقد رمتكم مكة بفلذات أكبادها".. صدق رسول الله ﷺ .

.....

ومنذ ذلك اليوم المشهود.. وكان لخالد ابن الوليد، شأن آخر فى تألق فكر العسكرية الإسلامية.. كان له دورا مشهودا سجله التاريخ فى موسوعة عبقرية بطل الإسلام، ومنذ تلك التحولات الكبرى التى عصفت بقواعد وقلاع وشواهد تاريخ ما قبل الإسلام، فقد كان للصحابى الجليل دوره المشهود فى كتابة نهاية أكبر قوتين عظيمتين وغالبيتين، تسيطران على العالم فى ذلك الوقت، لتبدأ مرحلة القوة الجديدة البازغة بنور الإسلام والهداية.. وقبل ذلك كان هو صاحب الفكر العسكرى الفذ الذى أطاح بأول ثورة مضادة.. أول انقلاب فى التاريخ الإسلامى (حرب الردة) وأعاد القبائل إلى رشدها، وقطع رؤوس المرتدين من المنافقين ومدّعى النبوة.. وكانت بطولاته على كل لسان ،وهو يقاتل فى كل المشاهد التى حضرها مع الرسول الكريم ومع الخلفاء الراشدين من بعده.. مسيرة طويلة تجسد ملامح عبقرية بطل الإسلام..

وحتى نقترب أكثر من تلك العظمة الباهرة للصحابى الجليل، من الذين غيروا وجه التاريخ الإنسانى، حين انطلقت كتائب الحق تطوى

العالم القديم بإيمانها.. وقبل أن نقرأ بعض سطور التفوق العظيم الذى فرضته إرادة "خالد" الغلابة على المصاعب فقهرتها، وعلى المستحيل فجعلته ذلولا.. وحيث لم تكن بطولاته سبيلا إلى الزهو، ولا إلى حسن الأحدوثة.. لابد أن نطل أولا على ثلاثة مشاهد، ترسم لنا بإيجاز غير مخل شخصية خالد بن الوليد.. من عظمة ورشد.. ومن الإيمان والثبات والبطولات والولاء لله وللرسول ﷺ..

المشهد الأول جرت وقائعه فى يوم الفتح العظيم، وحين يدخل خالد مكة وهو قائد الجناح الأيمن لجيش رسول الله ﷺ.. ومع تكبيرات عشرات الآلاف من المسلمين التى ترج مكة رجا، كان خالد يستحضر ذكريات الشباب اللاهية، وسنوات العمر التى ضاعت فى ضلالات الشرك والوثنية، وكيف كان، وكيف أصبح الآن.. ويعود إلى رشده يتمتم شاكرا نعمة ربه الذى هداه للإسلام.. ولكن الندم على ما كان، يحفز مشاعره ويلهبها، فيصب جام غضبه على صنم "العزى" وينهال عليه بمعوله، يضرب بيمينه وشماله، وحتى يتحول الصنم إلى شظايا، ولا يتوقف، ويضرب بقدميه صارخا بغضب "يا عزى كفرانك، لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك" ثم يشعل النار فى الشظايا المتناثرة.. وتهدأ ثورة الغضب على ما كان، راجيا أن يكون الله قد حط عنه ثقل الكفر، وهو الذى قال لرسول الله ﷺ حين بايعه: استغفر لىّ كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله.. فيستغفر له الرسول: "اللهم أغفر لخالد ابن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك"..

فقد كان مهموما بما كان قبل أن ينشرح صدره للإسلام، وهو من أبرز قادة جيش الوثنية، وحين دارت حرب طاحنة "غزوة أحد" تريد قريش أن تثأر من هزيمة بدر، وكان جيش المسلمين الأقرب للنصر، حتى نزل

الرماة عن مواقعهم ليحوزوا نصيبهم من الغنائم، ويكشف خالد برؤيته العسكرية أخطر ثغرة فى موقع الجيش المنتصر، فينطلق مع مجموعة من فرسان قريش، ويلتف على جيش المسلمين من الخلف، على حين بغتة، ويمتلك ناصية الحرب وزمام المعركة، وكان للمفاجأة أثرها فى تشتيت صفوف المسلمين!!

والمشهد الثانى.. مع الغبار المتصاعد من القتال الرهيب فى معركة "اليرموك "حيث تصهل الخيل، وتلتمع الأسنة، وحين سقطت من على رأسه "قلنسوته "انطلق يبحث عنها فى استماتة وإصرار غريبين، حتى أضنى نفسه والناس فى البحث عنها.. وكان العتاب شديدا من الصحابة بأن يغامر ويضنى نفسه فى ساحة القتال للبحث عن "قلنسوته".. فيقول خالد: "إن فيها بعض من شعر ناصية رسول الله ﷺ ، وإنى أتفاءل بها، وأستنصر".. إنه حب رسول الله ﷺ الذى ملأ قلبه وكيانه، وزاده إيمانا وثباتا..

والمشهد الثالث.. فى اللحظات الأخيرة من حياة الصحابى الجليل وهو "من عجزت النساء أن يلدن مثله "كما يصفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.. وهو قائد جيوش النصر.. وقد فتحت الدنيا أبواب متاعها وثرواتها أمامه.. وحين يشعر بقرب الرحيل يوصى بكل تركته إلى عمر ابن الخطاب (فرسه، وسلاحه).. كل ما تركه بطل الإسلام من ثروة ومتاع.. وما عند الله خير مما كان معه.. فقد نذر حياته للتضحية والبذل فى سبيل الله، وأصبحت متع الدنيا كلها فى اقتناص النصر.. فقط..

هذه ثروة رجل من الذين غيروا وجه التاريخ الإنسانى، وآثرهم الله

بنعمه، وجعل ذكرهم خالدا، وسيرتهم رضا..

وبعد أن أوصى بما يملك.. انهمرت دموعه حزنا على موته وهو على فراشه.. ويقول بدموع الحسرة: "لقد قضيت حياتى كلها فوق ظهر جوادى، وشهدت ما شهدت من زحف وقتال، وما فى جسدى موضع إلا وفيه ضربة سيف، أو طعنة رمح، أو رمية سهم، ثم هاأنذا أموت على فراشى حتف أنفى ،كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء"..

.....

.....

هذه بعض ملامح من شخصية أحد أبرز رموز العسكرية الإسلامية، والذى يحمل طاقة غير عادية، وفكرا عسكريا أثار دهشة وإعجاب الأعداء، وخشى عمر بن الخطاب إفتنان الناس به.. ويصفه أصحابه الأجلاء بأنه "الرجل الذى لا ينام، ولا يترك أحدا

ينام".. ويسجل له التاريخ، كيف بذل وجاهد، وكيف عقد العزم والنوايا، وهو يتألق عظمة ويتفوق اقتدارا، فى سبيل رفع رايات الإسلام فوق إمبراطوريات العالم القديم، وأن تتولى مواكب الإسلام صياغة العالم الجديد على نور الهداية والتوحيد..

لقد كان دوره المشهود فى إنقاذ دولة الإسلام الوليدة من مؤامرة المرتدين من عناصر "الثورة المضادة"..التى وجدت دعمها من الذين استشعروا خطر الإسلام على سلطان الروم والفرس.. وبعد أن قاد خليفة المسلمين أبى بكر جيش المسلمين وانتصر على القبائل المرتدة: بنى عبس، وبنى مرة، وذبيان.. عاد المرتدون لتجميع صفوفهم بعد أن هبت أعاصير الردة غادرة تهدد مصير الدين الجديد، واشتعلت نيران الفتنة فى

قبائل: أسد، وغطفان، وطئ، وبنى عامر، وهوازن، وسليم، وبنى تميم، وانخرط فى الفتنة أهل البحرين، وعمان، والمهرة.. واشتدت المحنة حول الإسلام، تهدد وتنذر.. وأعد المسلمون الجيش الثانى لمواجهة الخطر الأكبر على الإسلام، وتم تقسيم الجيش إلى إحدى عشر مجموعة، وعلى رأس أكبرها كان خالد بن الوليد، وينطلق فى مهمته من نصر إلى نصر، ولكن بعض القوات الأخرى من المسلمين تواجه مصاعب فى القتال مع بنى حنيفة فى اليمامة، فيرسل الخليفة إلى خالد بأن يتجه إلى بنى حنيفة بعد أن تجمعت جيوش الردة بقيادة "مسيلمة الكذاب"..

ويلتقى الجيشان، وتبدأ أشرس معركة فى مواجهة أخطر جيوش الردة بعد انحياز القبائل وتجميع صفوفهم ،حتى فاقت كثرتهم جيش المسلمين، ويبصر خالد رجحان كفة الأعداء، فينطلق بجواده إلى ربوة قريبة، يلقى نظرة سريعة على المعركة، وتتجلى العبقرية العسكرية فى لحظات وهو يراقب نقاط الضعف فى جيش المسلمين، ويعيد تنسيق المواقع على أرض المعركة من جديد، وتبديل المهام لكل راية، ثم يندفع كالإعصار بين صفوف المرتدين، يكبر ويهلل، فتشتعل صفوف المسلمين حماسة وعزما، وتتصدع فى لحظات صفوف جنود مسيلمة الكذاب، وتحاصرهم سيوف المسلمين التى انتظم فرسانها فى قطاعات وفيالق جديدة من الخطة العسكرية التى وضعها وأدارها خالد، وينطلق جيش المسلمين فوق جثث الآلاف من المرتدين بعد قتل رأس المرتدين "مسيلمة الكذاب".. وتنتهى أخطر معارك الردة وأعنفها، بانتصار كاسح للمسلمين يكتب النهاية للفتنة التى اشتدت محنتها حول الإسلام ، وكانت تهديدا مباشرا وخطيرا لدولة

الإسلام الوليدة..

ويصلى المسلمون فى المدينة صلاة الشكر.. ويتجه خليفة المسلمين إلى خالد قائلا: "سمعت رسول الله يقول: نعم عبد الله، وأخو العشيرة، خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله، سله الله على الكفار والمنافقين"..

وصدق رسول الله ﷺ..

.....

ويمضى خالد رضي الله عنه فى هدم قواعد وقلاع العالم القديم.. يتصدر مواكب الفرسان فى الإطاحة بأكبر إمبراطوريتين وقتئذ.. وهنا تبدو حيرة الباحثين قبل المستشرقين: كيف استطاع هؤلاء الرجال من أهل البادية، قاطنى الصحراء الجرداء، وهم يفتقدون خبرة حروب الجيوش المنظمة، بل ولم يعهدوها من قبل، ولا دراية لهم بفنون الخطط العسكرية التى تمتلكها أكبر قوتين عظميين فى العالم، وبعتادها وتنوع أسلحتها، ومع جحافل الإمداد والتموين، والقتال فى البر والبحر.. كيف أنجزوا مهام تغيير معادلات العالم القديم، وأن يحققوا الانتصارات الباهرة على القوى العظمى ؟! هل هو جهد بشرى خارق، أم هى القدرة النفسية الهائلة التى فجرها إيمانهم وولاءهم لله والرسول ﷺ، أم هى معجزات أقرب للأساطير ؟!

والإجابة كانت حاضرة، ومجسدة فى شخصية خالد بن الوليد، وبقدراته الفائقة على إدارة مسرح عمليات الحروب التى خاضها.. وتألق الذكاء فى دراسة خطط الخصم، وأن يقيم التوقعات المحتملة للتحركات المضادة داخل ساحات القتال.. والبحث عن نقاط الضعف ونقاط

الاختراق.. وأن يبنى تقدير موقف لكل طرف، من عدد المقاتلين، مشاة وفرسان، ونوعية التسلح.. وأن يتحسب للمفاجآت مع كل خطوة.. ثم يعيد خالد ترتيب فيالق جيشه وأجنحته، وإعادة تنسيق مواقعه على أرض المعركة، ثم يحتفظ دائما ـ وبفكره العسكرى الفذ ـ بمفاجأة اللحظة الأخيرة التى لا يتوقعها العدو، ومعها تتحول سيوف جيشه إلى مقادير لا راد لأمرها.. ومع نهاية كل معركة يعيد دراسة المواجهة السابقة، مع أمراء وقادة الجيوش، أشبه بتقرير ينتهى بتحديد من أين تجيئ الهزيمة حين تجيئ، ومن أين وكيف اقتنص المسلمون النصر..

تلك كانت إحدى خصال عبقرية بطل الإسلام..

وهكذا.. حين يشتد بأس العدو وجيوشه، كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يقولون

" خالد.. لها"..

.....

وكان قادة الفرس أول من اكتشفوا عبقرية خالد.. وحين انكسر الصلف والعناد الفارسى أمام قدرات الفكر العسكرى للقائد القادم من أقصى جنوب بادية العرب.. وأخذت الدهشة فى البداية تفعل فعلها داخل صفوف جنود إمبراطورية الفرس، ثم تحل الصدمة والرعب محل الدهشة، فتتهاوى القلاع، ويزحف خالد منتصرا من موقع إلى آخر، حتى يقف على تخوم الشام.. وكان التاريخ فى ذلك الوقت، كما كان فى أكثر الأوقات من عمر ذلك الزمن، لا يحفل إلا بسادة العالم من الروم والفرس، وحتى بدأت مواكب الفاتحين، ترفع رايات الإسلام، وتغير وجه التاريخ الإنسانى فى بضع سنين !!

وسيرة خالد بن الوليد تضعنا أمام حقيقة أن الذين أسلموا بعد الهجرة، لم يكونوا أقل اندفاعا إلى الجهاد واشتياقا إلى الغزو، من الذين شهدوا مع الرسول ﷺ المشاهد الأولى.. ولم يشتد خالد فى شىء بعد إسلامه، كما اشتد فى مناصرة دينه، وهو يحمل بين جنباته طاقة غير عادية.. وإذا كان الفرس أول من اكتشفوا قدرات هذه العبقرية العسكرية الفذة، فإن ما حدث فى العراق، قد بلغ الروم، وقد أعدوا للقتال جيشا قوامه مائتين وأربعين ألف مقاتل، استعدادا لمواجهة جيشا بقيادة خالد، وهو على رأس جيش المسلمين، بكل أمرائه، أبو عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبى سفيان، ومعاوية بن أبى سفيان، ولكنه كان مدركا وواعيا بتأثير خلجات النفس البشرية ونوازع الشيطان، فتنازل عن إمارة الجيوش وجعلها بينهم بالتوالى، يوما بعد يوم.. وكانت المواجهة مصيرية، حاسمة، بل هى فاصلة بين عهدين، وتاريخين، وسوف ترسم ملامح المستقبل للتاريخ الإسلامى.. وكان خالد متيقنا لخطورة المهمة التاريخية الفاصلة، فهو فى مواجهة جيوش الإمبراطورية العظمى الثانية التى حشدت حشودها دفاعا عن مصير قواعدها ومستعمراتها فى المنطقة، وعن مصير وجودها نفسه فى التاريخ.. ويضع خالد خطط الهجوم والدفاع التى تتناسب مع فكر جيوش الروم، ثم يتحسب جيدا لأية احتمالات قد تهب بمفاجآتها، فقد خشى ـ مثلا ـ فرار بعض جنوده من حديثى العهد بالإسلام، حين يبصروا حشود الروم فى فيالق كالجبال تسد الأفق.. ويدعو خالد نساء المسلمين، ويسلمهن السيوف، وأمرهن بالوقوف وراء صفوف المسلمين من كل جانب.. ويقول لهن: "من يولى هاربا.. فاقتلنه"..

ويدور القتال رهيبا، ضاريا، فى معركة اليرموك، ويحتار قادة الروم فى تفسير هذه القوة التى تندفع إليهم اندفاعا لا يخشى الموت، بل يسعى إلى الموت راضيا مرضيا، لنيل الشهادة.. وتتواصل معارك الفر والكر بين الجانبين.. وفى كل مواجهة يرسم خالد صورة تبهر الروم وهو يندفع بين الصفوف متقدما جنوده كالسهم المقذوف، وفى يده سيف لا يخطئ رقاب العدو.. ويتساءل قادة الروم فيما بينهم عن هذا اللغز الحائر لما يطلق عليه "سيف الله المسلول".. ولم يقو "جرجة" أحد قادة وأمراء جيش الروم، على الصبر طويلا، قبل أن يكتشف هذا السر الغامض، فيطلب من خالد فى إحدى فترات الراحة بين القتال، أن يخرج لمبارزته فى الساحة الفاصلة بين الجيوش، وحين يلتقيان يقول "جرجة": أصدقنى يا خالد، هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاك إياه، فلا تسله على أحدا إلا هزمته ؟؟ ويبتسم خالد مندهشا من كلمات "جرجة" ويقولا: لا.. فيستعجله القائد الرومانى بسؤال آخر: فبم سميت سيف الله؟!

ويقول خالد: إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدقه، ومنا من كذب، وكنت فيمن كذب ،حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله فبايعناه، فدعا لى الرسول وقال لى: أنت سيف من سيوف الله، فهكذا، سميت.. سيف الله"..

ويقول "جرجة" مستفسرا.. وإلام تدعون؟! قال خالد: إلى توحيد الله، وإلى الإسلام.. ويرد "جرجة" وفى نفسه شىء يوشك أن يكشف عن حقيقة ما يريد: وهل لمن يدخل الإسلام اليوم، مثل ما لكم من المثوبة والأجر ؟! ويقول خالد وعلى وجهه ابتسامة رضا تنشرح لها

الصدور: "نعم.. وأفضل "..وهنا يندفع "جرجة" بجواده إلى جوار خالد مطلقا المفاجأة: "علمنى الإسلام يا خالد "..

وأسلم القائد الرومانى "جرجة" المنبهر بعبقرية وفداء "خالد "، وينتقل إلى صفوف المسلمين، ويقاتل جيش الروم، فى سبيل الإسلام، حتى يستشهد..

.....

....

ولو أطال الله فى عمر "جرجة" يوما واحدا، لكان قد رأى عجبا..

وهو ما أثار حيرة ودهشة، وربما قلق قادة الروم !!

ماذا حدث ؟!

كان الفاروق عمر رضي الله عنه بعد أن تولى الخلافة مباشرة، ولهيب المعركة مازال مستعرا بين الروم وجيش المسلمين.. كان يرصد ويتابع بحذر، أحاديث العامة يتردد بين القبائل العربية عن عظمة أمير الجيوش الذى يطيح برؤوس الروم، بعد الضربات التى أسقط بها سيفه جبروت الفرس فى العراق.. وبين مكة والمدينة، راحت الروايات تحكى عن الفارس الخارق خالد بن الوليد.. وخشى عمر ـ بفطنته وورعه ـ افتتان الناس بخالد.. وكان من قبل يأخذ على سيف خالد بن الوليد، التسرع والحدة.. ويقول: "إن فى سيف خالد رهقا".. أى حدة وتسرعا.. فأرسل عمر بن الخطاب كتابا إلى جيش المسلمين، يأمر فيه بتنحى خالد عن القيادة، وتولية أبى عبيدة بن الجراح مكانه..

إذن.. ماذا يحدث لو تم تنحية القائد الأعلى للجيوش، وانتقاله إلى

صفوف الجند ؟!

بكل نوازع النفس البشرية.. وبمنطق العقل الذى يقيس الإنجازات الباهرة التى تحققت على أرض المعركة.. وفى حدود طاقات البشر التى تتحكم فيهم المشاعر الخاصة.. فإن ما حدث لا يمكن تصوره فى أى عصر خارج نطاق عصر رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى.. أولئك الأبرار بإيمانهم وثباتهم وبطولاتهم وولاءهم لله والرسول ﷺ.. إنهم لا يريدون سلطان الدنيا.. فيتقدم الصحابى الفارس، مؤديا تحية الجندى لقائده أبى عبيدة بن الجراح.. ويقبل عليه ابن الجراح فيقبله بين عينيه.. ويواصل خالد زحفه على الروم، جنديا يؤدى واجبه نحو الله ورسوله والدين الذى آمن به.. ويتلقى قادة الروم الرسالة وهم حائرون فى تفسيرها!!

أية عظمة تلك.. وأية قدرة نفسية هائلة تلك ،التى صاغوا بها فضائلهم..

إنه موقف، ينبئ عن معدن هؤلاء الرجال الذين نذروا حياتهم للتضحية والبذل فى سبيل نشر رسالة التوحيد.. وتلك هى بعض الخصال التى حققت المعجزات، والتى تبدو أمام الباحثين والمستشرقين، أقرب للأساطير.. معجزة تغير وجه التاريخ الإنسانى كله، فى بضع سنين .